ناصر والعمّال

بقلم
حمدي طه احمد

من الغريب ان يلاحظ المرء ان كل المؤرخين لثورة يوليو ، يتناولون المراحل المبكرة لها بشكل عام ، بل ان الدراسات الثلاث الاخيرة التي صدرت عن الحركة العمالية قد فضلت ان تقف ، في التفصيل ، عند عام ١٩٥٢ !

وعلى اي حال فمن الواجب ان انبه الى ان التاريخ المعاصر ، وبالذات لحركة الطبقة العاملة ، لم يعالج بعد بصورة علمية كاملة وبدقة ، ولا زال التأثير العام للتحليل البورجوازي ، متمثلا في اسلوب الرواة ، له اثره ، وان خفف منه ، قدرة هذا المؤلف او ذاك على تقديم وثائق مثيرة .

ولست ادعي اني بريء من هذا التأثير رغم المحاولة، فلا زلت ، شأن غيري ، اسيرا لاختبارات محسوبة ، ولا زلت ، وذلك امر مؤسف ، اقدم ممارسة فردية في هذا المجال الهام بالذات ! ومعذرة لاني ابتعدت عن عنوان المقال.

الطبقة العاملة تحضر للثورة

١ ــ علاقة ثورة يوليو في تطورها ، بالطبقة العاملة لا تبدأ بصباح الثالث والعشرين من يوليو .

ذلك ان الفترة السابقة على هذا وبالذات منذ يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . لقد كان حريق القاهرة تعبيرا عن وضع كيفي جديد في علاقات القوى الاجتماعية ، ذلك الوضع الذي لم يعد فيه الحاكمون بقادرين على الاستمرار في الحكم بالاساليب القديمة كما لم يعد باستطاعة المحكومين قبول استمرار الحكم بنفس تلك الاساليب . وفي ظل هذا الوضع الجديد ، كان دور الطبقة العاملة بارزا وأساسيا ، بل وقياديا فشعارات طلائعها اصبحت مع الوقت شعارات القسم الاوسع من الشعب وهي في النضال اليومي عصب المعارك الجماهيرية .

فضلا عن هذا فلقد كان الاتجاه الحاكم داخل حركة الطبقة العاملة هو الاتجاه نحو اليسار ، وبرز هذا في الشعارات وفي القيادات المحركة لها .

لهذا لم يكن صدفة كما يقول بالم ذات (مجلة وورلد نيوز اند نيوز في مطلع عام ١٩٥٢) ان احد الاسباب الجوهرية لحريق القاهرة يوم ٢٦ يناير كان منع المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات المقرر عقده في اليوم التالي .

ونستطيع ان نسرد امثلة عدة نوضح انه منذ هذا اليوم كان باستطاعة المحكومين ان يقرروا اشياء لا يرضى عنها الحاكمون ، على ان هذا تفصيل ليس هنا محله .

وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، هي الحل لهذا التناقض الذي بلغ ذروته ، جاءت وكان ذلك موقع الطبقة العاملة بين مختلف الطبقات .

احيانا ينجح الاعداء

في وجه صعوبات داخلية وخارجية ، استطاعت الطلائع النقابية ان تقرر منذ اليوم وقوفها الى جوار الثورة . ولا شك ان هذا كان خطا ناجحا واعتبرت ان مهمتها هي تأكيد وحدة «الجيش والشعب» .

واذا كانت هناك اقسام معادية لهذا الخط ، فلقد كان هناك ايضا حول الثورة وداخلها ، في تلك المرحلة، من يكره هذا المنطلق .

التاريخ لم يوضح لنا بعد تفاصيل مأساة عمال كفر الدوار في اغسطس سنة ١٩٥٢ . على ان الوقائع التي توفرت لي ، وكنت حينئذ في موقع قيادي للحركة العمالية ، تكاد تقطع بانها كانت نمرة تدبير رجعي . واستغلت تلك الحادثة من جانب العناصر الاكثر يمينية المحيطة بالثورة وداخلها ، لاثارة الشكوك في نوايا الطبقة العاملة وطلائعها ولدفع الثورة للاستمرار في هذا الاتجاه، وكادت ان تقع بالفعل مأساة اخرى ، لم يكشف التاريخ عنها بعد .

على ان هذه الحادثة كانت سلاحا في يد كل الاقسام التي ترفض منطق «وحدة الجيش والشعب» فاشتد ساعدها وأنهار في النهاية القسم الاهم المدافع عن هذا الشعار ، تحت تأثير تلك الحادثة وغيرها من التطورات ذات الطابع السلبي ، ومنها تعطيل المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات ، مرة اخرى في سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

هكذا يمكن ان نقول «لقد نجح الاعداء» وبدأت فترة انفصام بين القسم الاكثر طليعية والاكثر ثورية داخل الحركة النقابية وبين الثورة . وسمح هذا التطور لتفاقم

ونمو الاتجاهات «الثوروية» داخل الحركة النقابية وانتهى الامر بصدام استمر سنوات .

من جانب اخر ، كانت الثورة تحاول ان تخلق لها انصارا داخل الحركة النقابية ، ولقد كانت تلك فرصة لاقصى اليمين ، لولا انه لحسن الحظ ، كان يفتقر للوجود الجماهيري والكادر داخل الحركة النقابية . ومن ثم فلم تجد امامها الا عناصر نقابية ليبرالية، واعدادا من النقابيين الجدد غالبيتهم ذوو ميول انتهازية .

على ان جوهر موقف الثورة كان لا يزال هو موقف «الشك» من الحركة النقابية ، وأبرز دليل على هذا انه على الرغم من ان قانون العمل الجديد بعد تعديله عام ١٩٥٢ اصبح يعترف بوجود الاتحاد العام للنقابات ، الا انه لم يجر تكوينه طوال الفترة موضع المناقشة .

وعلى المستوى الدولي والوطني ، كانت الممارسة تنضج الثورة ، وتكشف لها عن معالم اعدائها الحقيقيين، وتوج هذا بمؤتمر باندونج ، ثم العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦

ومع تطور هذا النضج ، في الملامح العامة لخريطة العالم والوطن ، ومع الصدام الذي جرى داخليا مع الفئات الاكثر يمينية ، بدأت مرحلة جديدة . فالاتحاد العام للعمال يتكون ، وكذلك الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب ، ويجري انفتاح جزئي على القوى المتقدمة داخل الحركة العمالية داخليا ودوليا .

على ان الصدام مع حكم عبد الكريم قاسم بالعراق واصداءه الدولية ، يعطل من نضج هذا التطور ونموه ، ولكن سرعان ما تؤدي تجربة التعامل مع اليمن العربي في تجربة الانفصال السوري الى مرحلة مختلفة كيفيا عن المراحل السابقة .

من التجربة .. الى الوعي ..

فالثورة تصورت في المراحل السابقة ان للاستقلال اوطانا ، فركزت ضرباتها في الاساس الى قوى الاستقلال الاجنبي ... لكنها ادركت في النهاية ان الاستقلال موحد ، وكانت قرارات يوليو الشهيرة للتأميم ، تم الميثاق الذي عكس مرحلة مختلة كيفيا ، مرحلة لم تعد تهديها الممارسة وانما اصبحت تدرك بوضوح خريطة العالم والخريطة الطبقية للمجتمع العربي ، والمصري .

فمكانة الطبقة العاملة ودورها ، ودور حلفائها اصبح محددا ، واستنهضت لتلعب دورها ، ليس فقط على المستوى الجماهيري ، وانما في البناء الفوقي وفي الرقابة على السلطة من مواقع مؤثرة (المجلس التشريعي ، وزير عمالي للعمل ، ومجالس ادارات المؤسسات) .

والى جانب هذا تحصل الطبقة العاملة على مكاسب اجتماعية وثقافية هامة وجذرية ، وارتبط بهذا انفتاح دولي للطبقة العاملة على الفئات المتقدمة من الطبقة العاملة ، وبالذات في البلدان الاشتراكية .

الاعداء لا يخطئون وحدهم

اخطأت الادبيات التقدمية كثيرا في تفهم الواقع المصري الخاص. ولتوضيح هذا دعونا نأخذ مثلين اخرين.

في عدوان يونيه ١٩٦٧ ، دبرت مؤامرة العدوان ونجحت بالكامل لولا انها اغفلت عنصرا واحدا . وراهنت القوى الاستعمارية طوال حيانها على رقبة الرئيس باختباره نهاية لمتاعبهم ، وفجعت الجماهير بوفاة الرئيس وظل البناء والموقف المصري ثابتا صامدا ، لان الاعداء اغفلوا نفس هذا العنصر .

لكن ليس الاعداء وحدهم هم الذين يخطئون فالادبيات التقدمية كثيرا ما تقع في نفس هذا الخطأ وتغفل نفس هذا العنصر ، فالجميع ينطلقون في دراسة وتقييم وتحديد خططهم وتحليلاتهم من تتبع نشاط البناء الفوقي للمجتمع المصري ، يتابعون المقالات والمطبوعات ، انشطة المنظمات العامة وجوهرها ، وهي في كثير من الاحيان لا تعكس حقيقة التغيير الذي يجري في القاع .

لهذا جرى تحليل ايام ٩ و١٠ يونيو المجيدة على اعتبار انها هبة تلقائية ثم سكت التحليل فلم يتحدث عن مسيرات الفقراء والشباب يوم وداع القائد والمعلم عبد الناصر .

ان الشيء الذي يجب التنبه له ان النضال اليومي للجماهير مدرسة كبيرة وهامة . وفي بلد مثل مصر ظلت جماهيره تعيش منذ الحرب العالمية الثانية وبصورة ثابتة ، تحت ظروف تتسم بالحدة والتوتر السياسي ، كان لهذه الاحداث كل الاثر في تثقيف وتربية الجماهير، وبالذات الفئات المتقدمة فيها .

ناصر .... ابن الشعب

ولقد كان القائد والمعلم عبد الناصر .... هو ابن الشعب الذي تفهم بعمق هذا الواقع ، والمعبر بالفعل عن تلك الجماهير . ان البناء الفوقي للمؤسسات لم يستطع ان يحجب عنه ادراك ما يجري في قاع المجتمع . ولم يستطع ان ينال من ثقته التي لا حد لها بالشعب وبالذات بالعمال والفلاحين الذين انحاز لصفهم بوضوح .

ان المشوار الذي ساره عبد الناصر ، ليس فقط ملحمة شعبية بل هو ملحمة طبقية .

ويفرض واجب الامانة ان اعترف بأن هذا العرض عام بدرجة كبيرة ، وأن البحث يحتاج الى وقت اطول والى جهد مشترك وليس مجرد اجتهاد فردي .

القاهرة — **احمد طه احمد**